والرحمة هي الوقاية من أن يجيء الداء.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الدَّاء، والرحمة هي ألاَّ يجيء الداء.

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا(١) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة، وأن الوَحْي قد جاء للاثنين برسالة واحدة.

فالحق سبحانه ساعة يختار نبياً رسولاً، فإنما يختاره بتكوينٍ وفطرةٍ تؤهّله لحَمْل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى.

وإذا كان الخَلْق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

---

(١) تبوءا: اتخذا واجعلا. قبلة: مصلى تصلون فيه لتأمنوا من الخوف. وكان فرعون قد منعهم من الصلاة. أقيموا الصلاة: أتموها. وبشر المؤمنين: بالنصر والجنة. [تفسير الجلالين: ص ١٨٦].
وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٢٨، ٤٢٩): أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوءا أي: يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ فعن ابن عباس: قال: أمروا أن يتخذوها مساجد. وعن إبراهيم النخعي قال: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]. وقال سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية: (قبلة) أي: يقابل بعضها بعضاً. [من تفسير ابن كثير .. بتصرف].

ولا رَوِيّة [1] ، مثل الساعة التى تُؤذِّن ، أو المذياع الذى يذيع فى توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدى المهمة الموكولة إليه فى أى ظرف من الظروف.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس]

يبيِّن لنا أن الوحى شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضى أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم فى نفس الأمر ؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا فى مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت.

ولكن لنا أن نسأل:

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا . . إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعى أن نشغل أنفسنا: هل هو تحتمس الأول ؟ أو رمسيس؟ أو ما إلى ذلك؟ فهب أن فرعون المعنىَّ هنا قد غرق ، ألا يعني ذلك مجيء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالت ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوةً وأكثر شحنةً ضد هؤلاء القوم .

(١) الروية : النظر والتفكير فى الأمور ، وهى خلاف البديهة [المعجم الوسيط : مادة (ر و ى)].

وقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا[1] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

نجد فيه كلمة « مصر »[2] وهى إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .

ونحن هنا فى بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أى : وادى النيل .

ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادى النيل .

ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات فى القاهرة : « محطة مصر » .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (٨٧) ﴾ [يونس]

نفهم منه أن التبوُّء هو اتخاذ مكان يعتبر مباءةً[3] ؛ أى : مرجعاً يبوء الإنسان إليه .

التبوُّء - إذن - هو التوطن فى مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أى بلد لفترة .

---

(١) تبوأ : نزل وسكن .

(٢) ورد اسم « مصر » فى القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] . وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى : ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ .. (٥١) ﴾ [الزخرف] . أما قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. (٦١) ﴾ [البقرة] فقد وقعت فيها كلمة مصر منونة ، دلالة على أنه ليس المقصود بها مصر فرعون العلم الأعجمى الذى يُمنع من الصرف والتنوين ، فهى مصر من الأمصار أى : بلد من البلاد .

(٣) المباءة : المكان الذى ينزل به الإنسان ويسكن فيه . [لسان العرب : مادة (ب و أ) - بتصرف] .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضى العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة[(١)] .

والبيوت التى أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . . (٨٧) ﴾ [يونس]

والقبلة هى المتجَه الذى نصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التى نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذى يتحكم فى وضعنا الصفّى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ . . (٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - فى أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون فى قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد فى ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

---

(١) البيتوتة : مصدر للفعل بات يبيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [لسان العرب : مادة (ب ى ت) - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة .

وإلى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات [1] اليهود فى أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حيّاً واحداً ، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى . .

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه ، ويسمى باسم «حى اليهود» . وكانت لهم فى مصر «حارات » كل منها تسمى باسم «حارة اليهود» .

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً ، فإن حدث أمر من الأمور يفزعهم ؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا .

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

أى : أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة .

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربيعة بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة ، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

(١) الساحات : جمع ساحة وهى الناحية من البيوت . وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى . وساحة الدار : باحتها . [اللسان مادة : س و ح] ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] أى : بالمحلة أو الديار التى يسكنونها .

الارتباك للمصلين؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين فى أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر.

وحين نصلى فى المسجد الحرام بمكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فنجد من ينبه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة، ثم ينحنى الصف.

وكذلك فى الأدوار العليا التى أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة.

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام: إن معنى قول الإمام: «سووا صفوفكم» أى: اجعلوا مناكبكم[1] فى مناكب بعضكم البعض ، أما خارج الكعبة فيكفى أن نتجه إلى الجهة التى فيها الكعبة ، ونحن خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة ، ولكننا نصلى تجاه الكعبة؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف فى أى مسجد عن اثنى عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً[2] .. (٨٧) ﴾ [يونس]

أى: خططوا فى إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه:

---

(١) المناكب: جمع منكب ، وهو مجتمع عظم العضد والكتف. [لسان العرب: مادة (ن ك ب)].

(٢) القبلة: الوجهة. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] ، وهى الجهة التى نتجه إليها فى صلاتنا. ومعنى الآية هنا أن يبنوا بيوتهم ، مواجهة للقبلة. أو: اجعلوها قبلة للناس يتجهون إليها لنيل الخير.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء [1] لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة فى العمر ، ونُزكِّى - إن كان عندنا مال - مرة واحدة فى السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة فى العمر.

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيَزِد ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهى الصلاة.

ولكن مَن الذى اختار المكان فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلحظ هنا أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس]

وفى هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل فى الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين.

ونلحظ هنا فى هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتثنية فى التبوء ، وجاء بالجمع فى جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد فى نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل فى الرسالة إلى بنى إسرائيل.

---

(١) الولاء : الحب والنصرة . يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الأنفال] .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى: التبشير بالجنة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ[1] عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ[2] فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟[3] ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

والزينة: هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأى غذاء يسدُّ الجوع، وبالمشرب الذى يروى العطش.

أما إن كان الطعام منوَّعاً فهذا من ترف الحياة، ومن ترف الحياة الملابس التى لا تستر العورة فقط، بل بالزى الذى يتميز بجودة النسج والتصميم والتفصيل.

وكذلك من ترف الحياة المكان الذى ينام فيه الإنسان، بحيث يتم تأثيثه

---

(١) اطمس على أموالهم: قال ابن عباس ومجاهد: أى: أهلكها. وقال الضحاك وآخرون: جعلها الله حجارة منقوشة.

(٢) واشدد على قلوبهم: اطبع عليها. وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجىء منهم شىء. [ذكره ابن كثير فى تفسيره: ٤٢٩/٢].

(٣) رأى: نظر بعينه كأبصر. ورأى بفكره وقلبه بمعنى: علم. ورأى: اعتقد. ورأى فى نومه رؤيا: حلم. والرؤيا: الحلم فى النوم. ورأى: هنا هى البصرية. أى: حتى يروا العذاب بأعينهم ويعاينوه معاينة.

بفاخر الرياش [1]، ولكن الضرورة في النوم يكفي فيها مكان على الأرض ، وأى فراش يقى من برودة الأرض أو حرارتها.

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتى من الأموال، والرصيد الأصيل فى الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية.

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب.

وهذه الأحجار الكريمة - كالماس مثلاً - إن كُسرت أو خُدشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتَّت فأنت تعيد صَهْرَه ، فتستخلص ذهباً مُجمَّعاً.

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يسخِّرون الناس فى كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون فى القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب.

(١) الرياش والريش : الخصب ، والمعاش ، والمال ، والأثاث واللباس الحسن الفاخر . قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾ [الأعراف].

وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجد قناع «توت عنخ آمون» آية فى الجمال ، وكذلك كانت قصورهم فى قمة الرفاهية ، ويكفى أن ترى الألوان التى صنعت منها دهانات الحوائط فى تلك الأيام؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذى هو أكثر بكثير من الضرورات.

وفى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ..(٨٨) ﴾ [يونس]

وهم لم يَضلُّوا فقط بل أرادوا أن يُضِلّوا غيرهم ؛ لذلك تحملوا وِزْر ضلالهم ، ووزر إضلال غيرهم.

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطى أنت ابنك عشرة جنيهات وتقول له : افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير. وقد ينزل هذا الابن ليشترى شيئاً غير مفيد ولا يشترى - مثلاً - كتباً تفيده.

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هَدَتْه إلى اللعب. وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولام العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتى لبيان عاقبة الفعل [1].

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجى موسى - عليه السلام - فى طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى - عليهما السلام - بقوله تعالى:

---

(١) أى: أن فرعون لم تكن علة التقاطه لموسى أن يكون عدواً له بل ليتخذه ولداً ، وأضافت امرأته أن يكون قرة عين لها ولفرعون، ولكن كانت العاقبة غير ذلك ، أى: أن ما حدث كان عكس ما كان يريده فرعون.

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ [1] وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي.. ⑦ ﴾ [القصص]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق ؛ لأن الابن إن خُطف أو فُقد فهذا كله موت مظنون ، أما إلقاؤه فى الماء فليس فيه موت مظنون ، بل موت مؤكد ، إن لم يُنجِّه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد فى الفطرة منازعاً له.

أما نزغات الشيطان فهى تجد ألف منازع لها فى النفس ، وكذلك هواجس النفس .

ولذلك نفَّذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق.

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال [2] ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى فى قلوبهم ، قال :

﴿ ..وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ㊴ ﴾ [طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحبُّوه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعده لأمه :

﴿ .. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑦ ﴾ [القصص]

أى : أن لموسى - عليه السلام - مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

---

(١) اليم : الماء الكثير المجتمع . والمراد به : نهر النيل فى مصر .

(٢) كان فرعون وزبانيته يذبحون أبناء بنى إسرائيل ويستحيون نساءهم بعد أن سمع فرعون النبوءة التى قيلت عن أن ولداً من بنى إسرائيل سيقضي على فرعون . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ ﴾ [القصص] وقال تعالى : ﴿ .. وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥ ﴾ [القصص].

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم فى مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] .. (٣٩)﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ [3] لِّي وَلَكَ .. (٩)﴾ [القصص]

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذى التقطه سيكون عدواً له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف ؛ ليكون قُرَّة عين له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدواً ؛ ولو كانت العلة هى العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى فى كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذه فرعون وربَّاه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصددها : ﴿لِيُضِلُّوا﴾ نفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْطِهِم المال ليضلوا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالاً وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدى .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

---

(١) التابوت : الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ابنها قبل إلقائه فى اليم ؛ ليحفظه من الماء .

(٢) الساحل : شاطىء النهر القريب من قصر فرعون .

(٣) قرة عين : مسرة وفرح . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

ومعنى الطمس أى: إخفاء المعالم؛ مثل قول الحق سبحانه:

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ[1] وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا .. (٤٧) ﴾ [النساء]

ومعنى الطمس هنا: إخفاء معالم تلك الوجوه؛ فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن.

إذن: فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشىء. ودعوة موسى - عليه السلام - هنا:

﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: امسخها.

وقال بعض الرواة[2] أنها مُسخت، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً.

أو أن ﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: أذهبهما؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال.

---

(١) وردت مادة «الطمس» بالقرآن الكريم فى خمسة مواضع، هى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ .. (٦٦) ﴾ [يس]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) ﴾ [المرسلات]، وقوله تعالى: ﴿ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا .. (٤٧) ﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس].

(٢) قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى: صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد.

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ .. وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

أى : أحْكِمْ يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم؛ حتى يروا العذاب الأليم.

ولماذا دعا موسى - عليه السلام - على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يَدْعُ مثلما دعا سيدنا محمد ﷺ : «اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون» ؟

والإجابة: لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان.

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم.

إذن: فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء فى هذه الآية :

﴿ ..رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ..(٨٥) ﴾ [غافر]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر [1] وبين إيمان الاختيار [2].

---

(١) القصر والقسر: الإجبار على كره. ومنه: قصرت نفسى على الشىء إذا حبستها عليه وألزمتها إياه. انظر [لسان العرب مادة: قصر ، قسر].

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ [الإنسان]

فحين يأتى الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لا ينفع الإنسان.

ومثال ذلك: فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان [1]. فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام فى مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن فى قوله:

﴿ ..رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا [2] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام:

---

(١) قال تعالى : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس] . قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . ففرعون الذى قال : ﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات] وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي.. (٣٨) ﴾ [القصص] جاء الآن عندما عاين الموت وآية الله على صدق موسى فنطق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ [الأنعام] .

(٢) دياراً: أحداً . أى: استئصال كل نسمة كافرة من قوم نوح ، حتى طال هذا ولده من صلبه ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٧) حديث ابن عباس ، وعزاه لابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة». قال ابن كثير: هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ويلاحظ أن الذى دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إننا إن نظرنا إلى الأصالة فى الرسالة لوجدنا موسى - عليه السلام - هو الأصيل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده[1] ، وإن نظرنا إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعل واحد منهما لشىء فلا بد أن ينفعل الآخر لنفس الشىء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء نفسه ، أو أنه - أى : هارون - قد دعا بهذا الدعاء سراً .

والدعاء معناه : أنك تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ، فأنت لا تدعو إلا فى أمر عَزَّتْ عليك أسبابه ؛ فتقول : إن لى رباً أومن به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطى بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرة مَنْ آمن به ، وهو المسبِّب الأعلى سبحانه .

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطىء البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى :

---

(١) العضد من الإنسان وغيره : الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : العون والمساعدة . قال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] .

﴿ .. إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فَرَدَّ موسى عليه السلام:

﴿ .. كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

أى: لا ترتِّبوا الأمر بترتيب البشر؛ لأن معى رب البشر، فجاءه الإنقاذ:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ[1] (٦٣) ﴾ [الشعراء]

إذن: فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه.

والموضوع الذى كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء، ومثل هذا نجده فى غير الرسل ونسميه «التخاطر»، أى: التقاء الخواطر فى لحظة واحدة.

ومثال ذلك فى التاريخ الإسلامى، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشغولاً بالتفكير فى جيش المسلمين المقاتل فى إحدى المعارك، وكان عمر فى المدينة يخطب على المنبر، فإذا به يقول فجأة: «يا سارية[2] الجبل» وهى كلمة لا موضع لها فى منطق الخطبة، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذى يحارب، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر؛ فانحاز إلى الجبل.

(١) الفرق: الجزء. والطود: الجبل الكبير. [تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٦)].

(٢) هو سارية بن زنيم الدئلى. أمَّره عمر بن الخطاب على جيش وسيَّره إلى فارس سنة ٢٣ هـ، فوقع فى خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد قد همُّوا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته «يا سارية: الجبل، الجبل» ورفع صوته فألقاه الله فى سمع سارية فانحاز بالناس إلى الجبل، وقاتلوا العدو من جانب واحد، ففتح الله عليهم وانتصروا. [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى: ٢/ ٥٢، ٥٣].

ويقال في هذه المسألة: إن الخاطر قد شغل مع الخاطر ،مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذى تريد الكلام معه قائلاً: لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفياً ، وهذا يعنى أن الخاطرين قد انضبطا معاً.

وإذا كان هذا ما يحدث فى حياتنا العادية ، فما بالنا بما يحدث فى الأمور الصفائية ؛ وفى أرقى درجاتها وهى النبوة ؟

أو أن الذى دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمِّناً [1] ، والمؤمِّن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قَبِل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قَبِل أيضاً دعوة المؤمِّن معه.

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هى تحقيق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هى موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز الطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى ، وأمَّن هارون ، جاءت إجابة الدعاء : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ..﴿٨٩﴾ ﴾ بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال.

فالسماء ليست موظفة عند من يدعو ، وتقبل أى دعاء ، ولكن قبول الدعوة يقتضى تحديد الميعاد الذى تنفذ فيه.

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه ؛ فالحق سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون منفِّذاً لدعاء ما ، ولكنه هو الذى بيده مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجيبت دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة فى الميعاد الملائم ؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر.

---

(١) التأمين : هو قولهم آمين وراء الداعى . ومنه التأمين فى الصلاة وراء الإمام.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً [1] (١١)﴾ [الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة فى مجال التنفيذ والواقع.

وهو سبحانه وتعالى يقول:

﴿..سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ [2] (٣٧)﴾ [الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شراً، وكم من شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً.

إذن: فالقدرة العليا رقيبة علينا، وتعلم ما فى صالحنا؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه.

ولذلك نقول فى بيان قول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم [3] بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ [4]..(١١)﴾ [يونس]

---

(١) عجولاً: صيغة مبالغة من العجل والعجلة وهو السرعة. والمراد: أن الإنسان مجبول على حب الخير، وعلى العجلة فى طلبه لنفسه، ويلح فى الدعاء، حتى لو كان الأمر شراً وهو يظن بجهله أنه خير. قال تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ..(٣٧)﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ..(١)﴾ [النحل].

(٢، ٣) عجل يعجل - عجلاً وعجلة. واستعجل استعجالاً. قال تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ..(١٥٠)﴾ [الأعراف] وقال: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣)﴾ [طه] وعجل الأمر: طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة. وعجل الأمر: سبقه. [القاموس القويم].

(٤) الأجل: المدة من الزمن، والمراد: العمر.

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه [1] ، ألا تسمع أمّاً تدعو على ابنها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس في ذلك شر بالنسبة للأم.

والولد قد يقول لأمه مغاضباً : يا رب تحدث لي حادثة ؛ حتى تستريحي مني . فهَبْ أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ .. قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾
[يونس]

أي : ابقيا على الطريق السوي ، ولا تُدْخِلا نفسيكما فيما لا علم لكما به . أليس الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

(١) ثبت في صحيح مسلم النهي عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدي بن عمرو الجهني ، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له : شأ لعنك الله . فقال ﷺ : «من هذا اللاعن بعيره» ؟ قال : أنا يا رسول الله . قال : «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ [1] أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾

[هود]

أى: كُنْ مؤدَّباً مع ربك حين تدعو وتنفَّس عن نفسك ، ودَعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجَّلة إلى حين أوانها ، وكلاهما خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ [2] (٩٠) ﴾

قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ .. (٩٠) ﴾ لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج عن أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ : النصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلَيِّن قلبه من ثواب وعقاب . [ذكره ابن منظور فى اللسان مادة : وعظ] . قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٦) : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ .. (٤٦) ﴾ [هود] . أى : إنى أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين . أى: الآثمين . قال ابن العربى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين .

(٢) أتبعهم: اتبع أثرهم ؛ ليدركهم. وكان موسى وقومه بنو إسرائيل فى خروجهم ستمائة ألف وعشرين ألفاً ، وتبعهم فرعون مصبحاً فى ألفى ألف وستمائة ألف . بغياً وعدواً: أى : فى حال بغى وظلم واعتداء . وقال المفسرون: بغياً: طلباً للاستعلاء بغير حق فى القول ، «وعدواً» فى الفعل . أدركه الغرق : ناله ووصله . قال آمنت : أى: صدَّقت ، أو آمنت - والإيمان لا ينفع حينئذ ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٠٤ ، ٣٣٠٥) - بتصرف].